كمال عمار

غارقا فى أنهار الملح

كانت نهاية حياته مأساة حقيقة.. تدل على اتساع هذه الفجوة بين طموحاته وواقعه الردئ.

فقد أصابه الزهايمر فى ذاكرته وتفكيره.. وكان يخرج من بيته هائماً لا يعرف إلى أين يسير.

وفى أحد أيام العام السابع بعد الألفين.. خرج كعادته ولم يعد.. وأخذت أسرته ورفاقه يبحثون عنه فى كل مكان بلا جدوى.. وبعد عدة أيام وجدت جثته طافية فى مياه ترعة الخطاطبة بالبحيرة.. ليحقق ما سبق وكتبه فى بداية مشواره مع الشعر (رحلة الألف ميل):

خضت بقدمىّ السبع بحار

ورأيت الموت القابع عند المنحنيات

يستجدى أرواح المارة فى منتصف الليل

كنت بخيلا لم أعط الموت

وحرصت على عمرى أملا فى لقياه

وينطفئ الأمل الذى عاش كمال عمار من أجله..

وشاعرنا ولد عام 1933 بالسيدة زينب بالقاهرة.. وتلقى تعليمه فى الأزهر حتى المرحلة الثانوية.. لكنه لم يكمل تعليمه وفضل أن يكون شاعراً

وكاتباً.

عمل فى عدة صحف.. وكان كاتباً بالأهرام والجمهورية.. وأصدر عدة أعمال شعرية منها: أنهار الملح ـ من علمك الحكمة يا ـ ما أبقت الأيام.

اتجه فى سنوات عمره الأخيرة إلى كتابة الأغاني.. وإلى الأعمال الدينية الإذاعية.. وحصل على جائزة الدولة التشجيعية عام 1988.

وكان كمال عمار عضوا فى حركة الشيوعيين المصرية.. ودخل السجن مع رفاقه ولاقى صنوف التعذيب كما لاقوه.. لكنه تحمل كل هذا من أجل ما كان يؤمن به.. حيث وقف إلى جانب الفقراء مثله ومن أجل مقاومة الزيف والكذب والخداع.. أو على حد قوله فى قصيدته (وأقفل المحضر من ألف ألف عام):

رأيتنى فى غابر الأيام

فى الحرب والسلام

ذلك المباع والمستأجر

أكذوبة مرتبة

خناجراً تحت الرداء

منابرا مشبوهة الدعاء

تدعو بطول العمر والبقاء

لكل من يشد فوق ظهره عباءة القيصر

ثم يقول:

فى زحمة الطبول والأعلام

والأعلام والطبول

بكيت مرتين

فمرة لأننى قتلت

جندلت حتى صرت لا أدرى

متى.. وكم.. وأين؟

تشابه المنظر فى الساحة الجهمة

ومرة يا عين..

لأننى مقتول

من غير ما تهمه

وأقفل المحضر

من ألف ألف عام

مهددا كان كمال عمار.. بالقتل والسجن والتشريد إذا لم يكن واحداً من قافلة المزيفين والكذبة.

أما تجربة السجن فقد عبر عنها فى ثنايا قصائد كثيرة نختار منها قصيدة (هناك ما يخيف دائما) وفيها يقول:

الموت بالمجان خلف الباب والجدران

سيان.. أو حجارة الرصيف

إن كنت تؤثر النجاة أغمض العيون

وأقصر اللسان

أغلق الأذان

المجد للذين يعبرون

حائط صوت العقل

والزمان والمكان

المجد للجنون

فاقذف إلى النيران عقلك الحصيف

هناك ما يخيف دائما

هناك ما يخيف..

هكذا يصور حالة السجين.. الـذى لابـد أن ينـسى عقلـه وتفكـيره.. ويصير مثل الحجارة التى تحيطه.. يغمض العينين.. ويقصر اللسان ويغلـق الآذان وحبذا لو افتعل الجنون.

وكمال عمار لم يفتعل الجنون.. بل كانت مأساته أنه تمسك بعقله وكلمته وموقفه فلاقى العذاب والقسوة والإهانة.

وهو يعلم تماماً أن كلماته ـ حتى لو ما تسمع على قدر من اليقظة ـ مؤثرة فى سامعيه.. مهما كانت طبقاتهم.. وفى هذا يقول (قد استرحت):

مازال فى فمك الكثير تقوله

والسامعون

طاب الرقاد وإن تفتحت العيون

والشمس فى سمت الظهيرة

والجنود

هم وحدهم من يسمعون وإن تثاقلت الجفون

فلعلة حتى يروك خرجت

عماهم عليه عاكفون

فتقام دعواهم عليك

ولا شفاعة فى الحدود

يتواثبون إليك من كل الجهات الخمس

ها هم يمسكون

بلسانك الممتد فى بعد المدار

سلُّوه فيما يزعمون

وكان ثانية يعود

قد صارت الكلمات فيه

أشد طولا ما تكون

وأحد من سيف المنون

هكذا لم يؤثر فيه ولا فى موقفه ولا فى كلماتـه.. هـذا الحـصار اللعـين.. وسوء الفهم لما يقول ويعبر عنه.

obeikandl.com

ويؤكد الشاعر هنا أن كلماته مهما حوصرت.. ولسانه مهما سلوه.. فهو ممتد عبر المدار.. سرعان ما يعود أشد طولاً مما كان.

وهو موقف يتسم بالشجاعة والوطنية.. رافضاً لكل حصار وعذاب وقسوة.. متحملاً فى سبيل مبدئه مزيداً من السجن والتشريد.

وربما كان اليأس يتسلل إلى داخله بين الحين والآخر.. فهو يحرث فى البحر.. ويدق رأسه فى الحائط بلا جدوى.

وفى هذه اللحظات يضع أمام القارئ وأمام الناس جميعاً موقفه المعلن فى قصيدته (المجد لكم):

هاتوا أوراق ضمائركم

أوشك أن أملى آخر كلماتى

حتى لا يخجل منا الجيل الآتى

حتى لا يفجؤنا الضحك الساخر

يرمينا كتراب القبر المتساقط

فى عين الموتى

هاتوا أوراق ضمائركم

كى تبرئ ساحتنا فى وجه قضاة

لا نعرف من هم

لا نعرف كيف يضاهون الحق من الباطل

هاتوا أوراق ضمائركم

هاتوا.. ما هذا

هل شح الورق إلى هذا الحد؟

وهى كما نرى قصيدة تصور الواقع تصويراً صادقا.. وتجعل الشاعر يخرج من يأسه.. ويسجل لنفسه موقفاً مشرفاً كريماً فى مواجهة الظلم والفساد وانحسار العدالة.. وافتقاد الضمائر.

وهو هنا حينما يخاطب الضمير الإنساني.. يحاول استخرج تلك النطفة الناصعة من قلب البشر.. لكنه ـ مع صدق هذه المحاولة ـ يكتشف ضياع هذه النطفة.. وضياع الضمائر.

لقد كانت رحلة كمال عمار رحلة ضياع فى أنهار الملح.. انتهت بخيانة هذه الأنهار.. وابتلاع جثته فى طميها.